مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 08 عدد: 04 السنة: 2019
ص: 97 - 112 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

مفهوم تحليل الخطاب عند زيليغ هاريس
Zellig Harris's Concept of Discourse Analysis

د.فريدة موساوي *

Farida Moussaoui

كلية الآداب واللغات . جامعة البويرة/ الجزائر.

University of Bouira/ Algeria

تاريخ الإرسال: 2019/11/22	تاريخ القبول: 2019/06/18	تاريخ النشر: 2019/09/25

ملخص البحث

يتناول البحث بالعرض والتحليل مفهوم تحليل الخطاب عند اللساني الأمريكي زليغ هاريس Zellig Harris الذي يعتبر من مؤسسي مفهوم الخطاب ثم المساهمة في إرساء قواعد تحليل الخطاب. لقد ظلت اللسانيات، قبل هاريس، أسيرة النظرة التقليدية إلى التحليل اللغوي الذي كان محصورا في مستوى الجملة، وظلت مسألة العلاقة بين الجمل ومكوّنات التلفظ ككل موضوعا تحاول اللسانيات تحاشيه وإقصائه من التحليل. لقد شرح هاريس كيف أن مفهوم الخطاب فرض نفسه على اللسانيات انطلاقا من كون التحليل اللساني التقليدي قد يؤدي إلى قصور في فهم ليس النص فحسب بل حتى في فهم الجملة ومكوناتها نظرا لعلاقة الترابط القوية بين مكونات الخطاب، بما في ذلك المكوّنات الخارج . لغوية Extra-linguistique . لقد كشف هاريس أيضا، ومن خلال منهجه القائم على التحليل بالسلسلة، عن تلك العناصر اللغوية والصوتية المشكّلة للحدث النطقي .

الكلمات المفتاحية : تحليل الخطاب . لسانيات توزيعية . تداولية .

Abstract

This paper tries to trace the outlines of Zellig S.Harris ' s theory of discourse analysis proposed in 1952. Despite of the fact that Harris himself was an American linguist and distributionlist, he was the first one to introduce the concept of **discourse** in linguistic analysis. But, in dealing with this notion, Harris was in fact constituting the framework of a new field of research that of discourse analysis. Linguistics, before Harris, had been confined in the old-fashioned dogmas which consider linguistic analysis as the study of words structure in the sentence according to the traditional view that sentences are the definitive parts of speech that has meaning. Through his analysis of what he called connected discourse Harris revealed to what extent parts of speech are linked in the experimental use of language.

* فريدة موساوي. fmoussaoui.pragma@gmail.com

Keywords : Discourse analysis – distributional linguistics – pragmatics.

1.مدخل :

1.1.الإطار العام لنظرية هاريس في تحليل الخطاب:

تأسست البنيوية الأمريكية في إطار المدرسة السلوكية في علم النفس التي أرسى قواعدها اللساني ليونارد بلومفيلد . «والسلوكية هي نظرية نفسية تفسّر الظواهر اللسانية كظواهر ملاحظة observables تخضع للمثير stimulus والاستجابة réponses، والتي تُرجع إشكالية المعنى إلى تجربة الجماعة الثقافية »[1]. لقد كان لكتاب بلومفيلد الأثر البارز في تغيير مسار الدراسات اللغوية الأمريكية لفترة من الزمن حتى سميت هذه المرحلة بالمرحلة البلومفيلدية، وهي المرحلة التي استفادت منها الدراسات اللسانية من العلوم التجريبية. وتعرف السلوكية بالمذهب الآلي أو المادي باعتبار أن السلوك الإنساني يخضع للملاحظة المباشرة . وترتكز مبادئ هذه المدرسة على المعرفة الاستقرائية المعتمدة في العلوم التجريبية (فرضية – تجربة – ملاحظة – استنتاج).

وتأثرت الدراسات اللغوية بشكل عام بمذهبين فلسفيين : المذهب التجريبي الذي يُرجع المعرفة العلمية إلى الملاحظة المباشرة، والمذهب العقلي الذي يرى أن المعرفة أسمى من الحواس. وكما هو معلوم فإن كل المدارس البنيوية تبنت المذهب التجريبي تماما كما حدّده فرديناند دي سوسير F.De Saussure الذي يرى أن دراسة اللغة ينبغي أن تكون «في ذاتها ولذاتها»[2]، بمعنى أن اللغة لا يمكن إخضاعها للتجريب والملاحظة المباشرة، لكن يمكن أن نؤسس لدراسة علمية موضوعية من خلال تحليل بنية اللغات ونظامها والبحث عن الأجزاء المكوّنة لها بمنهج وصفي تحليلي. أما المذهب العقلي فيعتمد على المعرفة الذهنية، وعُرف هذا الاتجاه خاصة عند مدارس بورروايال، وبعدها تشومسكي الذي حاول تخطي الاتجاه البنيوي إلى بناء نظرية تفسيرية للّغة. وجاءت التوزيعية كطرف نقيض للذهنية Mentalisme وكل الدراسات التي تتخذ المعنى موضوعا لها .

2.1.. المدرسة الأنغلوسكسونية في تحليل الخطاب

في البداية لا بد من الإشارة إلى أن تقسيم تحليل الخطاب إلى مدارس غير متداول خارج فرنسا لأنه من وضع الباحث الفرنسي دومينيك مانغونو. بل أن الأمريكيين أنفسهم لا يستعملون هذا التقسيم كما أنهم ينظرون إلى حقل التداولية وتحليل المحادثة والتفاعل الاجتماعي على أنها حقول مستقلة بنفسها.

انطلاقا من الأسس التي أرساها هاريس في تحليل الخطاب، ظهر في الستينيات تيار تحليل المحادثة analyse conversationnelle الذي استهدف التخاطب في الحياة اليومية على الخصوص. أسس لهذا التيار زمرة من الباحثين في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع أمثال هارولد غارفينكل H.Garfinkel وهارفي ساكس H. Sacks وإيمانويل شيغلوف E.Schegloff وغايل جيفرسون G.Jefferson. ويعتبر غارفينكل هو المؤسس الفعلي لتيار الإثنوميتودولوجيا الذي ينظر إلى عملية التفاعل الكلامي على أنها تحكم في قوانين محددة تحكم العلاقة بين المتكلم والمتلقي[3]. ثم تطور مفهوم التخاطب إلى مفهوم للخطاب على يد كل من ساكس وشيغلوف وجيفرسون الذين نظروا إلى موضوع التخاطب على أنه الخطاب[4].

لقد كانت هذه الأعمال تالية مباشرة لدراسات هاريس حول تحليل الخطاب[5] بالرغم من الاختلاف الواضح في الخلفية المعرفية للباحثين الجدد. وبداية من السبعينيات والثمانينيات بدأت تتبلور في الولايات المتحدة الأمريكية نظرية للخطاب تركز على بنيته الكلية أ ما أسماه غامبرز Gumperz بالاستراتيجية الخطابية التي تركز على إنتاج المعنى في التفاعل الكلامي وشروط تحقق الانتقال اللغوي code-switching[6]، بمعنى التحكّم في مستويات اللغة. وقريب من هذه التوجهات أسس الباحث الأمريكي البريطاني الأصل بول غرايس P.Grice لتيار جديد في تحليل الخطاب قائم على ما أسماه مبدأ التعاون principe de coopération الذي يقوم على ضرورة بذل المتكلم لجهد إضافي في سبيل توضيح مقاصده أثناء الكلام، بمعنى أن عليه أن يساعد المتلقي على فك شفرات كلامه. ووظف غرايس لأول مرة مفهوم مبادئ التخاطب maximes de conversation[7] التي تكرس مبدأ التعاون والتي لا تختلف كثيرا عن مفهوم قوانين الخطاب في المدرسة الفرنسية.

وفي اتجاه مختلف عن المدرسة الأنغلوسكسونية إلى حد ما ظهرت توجهات جديدة حاولت دمج لسانيات النص بتحليل الخطاب مثل مجهودات الباحث الهولندي توين فان ديك T.Van Dijk خاصة في كتابه (النص والسياق). «إن الدراسة اللسانية للخطاب من حيث كونها جزءا من أعم دراسة اللغة الطبيعية يجب أن تشترك أغراضها ومقاصدها الأساسية مع النظريات اللسانية بوجه عام ومع علم النحو بوجه خاص »[8]. غير أنه سرعان ما يضيف إلى هذا المنطلق اللساني البعد التداولي للخطاب عندما يقول : «إن النظرية اللسانية تهتم بأنساق اللغة الطبيعية أعني تراكيبها المتحققة أو الممكنة التحقق، وبتطورها التاريخي وبمختلف أنشطتها الثقافية ووظيفتها المجتمعية، وأسسها المعرفية»[9]. ثم أنه يخصص الفصل التاسع من الكتاب لأفعال الكلام الكلية التي تكتسي عنده أهمية بالغة على اعتبار أن النص كخطاب ينطوي على أفعال كلامية فرعية نستنبط منها فعل كلامي كلي كما يتبين ذلك من خلال المثال الذي ساقه فان ديك[10].

2.اللسانيات التوزيعية

1.2.مفهوم التحليل التوزيعي :

قبل التطرق إلى مفهوم التحليل التوزيعي، يجب أولا الإشارة إلى أن التوزيعية ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1930، وبلغت أوج تطورها سنة 1950 .

والتوزيعية « مقاربة شكلية بحتة تبعد كل اعتبار متعلق بالمعنى وهي ملاحظة قديمة لم تتبلور لحد الآن كطريقة للتحليل»[11].هذا القول يجعلنا نطرح السؤال الآتي : هل يمكن أن توجد دراسة لسانية شكلية بحتة بعيدا عن المعنى ؟ و الإجابة على هذا السؤال فرضته وضعية لغوية خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية :«فهناك الكثير من العوامل التي تفسّر ظهور هذه الطريقة في الولايات المتحدة الأمريكية بفعل التوجهات الفيلولوجية، والتاريخية، والمقارنة في مجال النحو».[12]

وهذه التوجهات ترتكز على دراسة خصوصية اللغات الأمريكية، والبحث عن أواصر القرابة بينها، هذا بالإضافة إلى كل الدراسات التي تندرج في مجال النحو المقارن. كما أن ما يميّز الدراسات اللغوية الأمريكية عن غيرها هو:«وجود أكثر من 150 عائلة لغوية في المحيط الأمريكي وأكثر من ألف لغة، ما خلق للاثنولوجيين والمسؤوليين مشاكل كبيرة. هذه اللغات موجودة في شكل لساني غير عادي، هي لغات غير مشفرة non codifié، وشفهية»[13]. ففي هذا القول تأكيد على أن اللسانيات الأمريكية تطوّرت من خلال حقول معرفية متنوعة و أهمها الاثنولوجيا،

والأنثروبولوجيا، كما أن الدافع للتحليل التوزيعي عند هاريس هو لغة الهنود الحمر. فلغة هذه القبائل لم تدرس من قبل بسبب عائق المعنى، كما تعتمد هذه اللغات على المشافهة.

وعلى غرار المدارس البنيوية « تعتمد التوزيعية على المدوّنة كعينة تمثل اللغة، وهي غير قابلة للتغيير، يتم تعميم نتائج هذه المدونة على اللغة. واختيار المدونة يتم بمجموعة من الشروط التي تحدّد طبيعتها ومدى تلاحم الملفوظات مع بعضها البعض مع إيجاد السياقات المختلفة»[14]. فالمحلّل يختار عيّنة من اللغة المدروسة، وتُعتمد هذه العيّنة في مسار البحث، ويركز المحلّل على إيجاد السياقات المختلفة situations ، والمقصود هنا السياق اللغوي، أي محيط العناصر وموقعها، هذا بالإضافة إلى كيفية الربط بين الملفوظات داخل اللغة بالاعتماد على مبدأ المحايثة. ويؤكد هاريس على أهمية الدراسة المحايثة في قوله :« وبفضل المحايثة نحدّد قواعد التركيب للّغة بمعزل عن بعض العوامل مثل الشخص المتكلم le sujet parlant أو السياق »[15]. ومبدأ المحايثة جاء به دي سوسير حين أقرّ أن دراسة اللغة ينبغي أن تكون علمية موضوعية بعيدا عن الدراسات المعيارية. كما تبنى يلمسليف Hjelmslev هذا المبدأ والذي اختصره في الشمولية، والوضوح، والاختصار .

2.2.التحليل بالسلسلة عند هاريس :

قبل التطرق إلى طريقة التحليل بالسلسلة، نشير أولا إلى أن كلمة سلسلة chaine مصطلح لساني حديث حيث من خلاله :«تظهر اللغة في شكل تتابع للأحداث النطقية عبر الزمن »[16]. وهذا التعريف يقترب كثيرا من مفهوم الخطية عند سوسير :«على اعتبار أن الدال ذو طبيعة سمعية، فإنه يجري في الزمن بمفرده، ويحمل خصائص هذا الزمن من حيث أنه:

أ- يمثل امتدادا .

ب - يكون هذا الامتداد قابلا للقياس في بعد واحد هو الخطية .

لا تمتلك الدوال السمعية سوى خط زمني، كما أن وحداتها تتواجد الواحدة بعد الأخرى، وتشكل سلسلة. هذه الطبيعة الخطية تظهر مباشرة في الكتابة، وتأخذ مكان الخطية المكانية ligne spatiale للرموز الكتابية في التتابع الزمني»[17]. وهنا إشارة واضحة إلى مدى التطابق بين الأحداث السمعية والأحداث النطقية وكلاهما يسير عبر خط الزمن.

كما أنه من الناحية النطقية يستحيل التلفظ بعنصرين دفعة واحدة، كذلك على المستوى السمعي تتم ترجمة الوحدات اللغوية على مستوى الدماغ في شكل تراتبي. أما فيما يتعلق بالامتداد فهو أن كل عنصر لغوي داخل التركيب هو امتداد للعنصر الذي قبله، مهما كان نوعه (حرف، كلمة، جملة الخ ...). ولا يتضح تتابع العناصر اللغوية في الشكل الملفوظ (عملية النطق، أداء الكلام) بل يتضح أكثر في الكتابة حيث تُرص الملفوظات إلى جانب بعضها البعض لتكوّن خطا أفقيا .

ويرى هاريس أن التحليل بالسلسلة:«هو وصف الملفوظات، وأن المورفيمات تحتل موقعًا داخل الملفوظ، بحيث يكون المطلوب الفصل بين المقطع والجملة، لكي نتحصل على مجموعة من البنى التي تتحدّد كمقاطع من المورفيمات والتي تظهر كجمل. والجملة هي المقطع الأدنى، والمقبولة كما أنها تعتبر السلسلة الأساسية. وهذه السلاسل يمكن أن تضاف إليها المورفيمات التي لم تقبل كجملة، فهي في الواقع الروابط (junctions) كل واحدة توضع في مكان محدّد في السلسلة الأساسية أو في جزء من السلسلة.مثال :

- Pierre est heureux

- بيار سعيد

هي جملة ، أما:

- Pierre est très heureux

- بيار سعيد جدا

فهي كذلك جملة لكنها تحمل إضافة »[18].

من خلال هذا الطرح نلاحظ أن التوزيع عند هاريس هو تحديد موقع العناصر داخل الملفوظ ، كما أن التحليل يبدأ بالجملة باعتبارها الركيزة الأساسية وأنها كذلك أصغر مكون، كما أنها تحتمل الإضافات، وأن هذه الإضافات تحتل موقعا محددا (خاصا بها). ولا يمكن الحديث عن السلسلة إلا بوجود روابط، والروابط يمكن أن تكون لفظية أو معنوية. ومفهوم السلسلة عند هاريس يقترب من مفهوم الترابط عند هاليداي Halliday.

كما ركّز هاريس في نظريته على فكرة التتابع (articulation). ويقصد بالتتابع داخل الخطاب:« تتابع المورفيمات التي تحيل إلى العلاقات المنطقية بين الجمل أو داخل الجمل، أو بين

المكوّنات constituants والروابط conjonctions . فمثلا في اللغة الفرنسية : les adverbes (aussi bien ، mais,et,ou) هي روابط منطقية »[19] .

هنا إشارة إلى أهم قضايا تحليل الخطاب بوجه عام ولسانيات النص بوجه خاص، والتي تتمثل في الروابط بين الجمل التي تؤسس لدراسة لغوية جديدة و هي النحو النصي .

3. تقاطع التوزيعية مع النحو:

يعتبر هاريس من مؤسسي النحو النصي، وهو الذي اقترح التحليل البديل لنحو الجملة، والعنصر المشترك بين التحليل التوزيعي والنحو هو المكون النحوي. يقدم لنا هاريس نموذجا للتوزيع النحوي للجملة . فمثلا في اللغة الفرنسية نجد بعض الجمل تتكون من اسم (N1) + فعل(V) +اسم (N2) :

1- Le chasseur tue le lion (الصياد يقتل الأسد)

N1 V N2 اسم2 فعل اسم1

2- Le lion tue le chasseur (الأسد يقتل الصياد)

N2 V N1 اسم1 فعل اسم2

وبتحويل فعلي الجملتين نتحصل على الجملة التالية :

Le lion est tué par le chasseur

قتل الأسد من طرف الصياد

وهذه القاعدة يمكن أن تطبق في كل جملة على شكل: N1+V+N2 على شرط أن تكون في اللغة الفرنسية، وهذه الطريقة تجعلنا نصل إلى أبعد الحدود في تحليل الخطاب»[20]. وقد فصَّل تشومسكي كثيرا في تحليل مكونات الجملة وذلك في نظريته التركيبية. وبخلاف النحو التقليدي الذي يركز على أهمية المضمون الإخباري للنحو L'information grammaticale فإن هاريس يرى أنه غير مهم في التحليل ويؤكد :«أن استعمال المضمون الإخباري لا يعوض المنهج في تحليل الخطاب، ولا يؤثر في شيء في هذه الطريقة الخاصة، ولا يفيدنا إلا في تحويل بعض الجمل في النص إلى جمل متعادلة نحويا phrases

grammaticalement équivalentes وأيضا لتسهيل تطبيق طريقة تحليل الخطاب، ولكي تكون ممكنة في بعض مقاطع النص والتي كانت غير موجودة من قبل. وأن الأمر لا يتعلق بالكم الاعتباطي :كيف؟ ومتى تطبق هذه التحوّلات النحوية؟ لكن البنية(بنية النص) في ذاتها هي التي تحدّدها »[21].

يعتمد التحليل التوزيعي على التصنيف مع معرفة التحولات في بنية الجمل، والمنتج للنص يمتلك خيارات مختلفة في استعماله للغة، وما على المحلل إلا الكشف عن هذه الخيارات. هذا على مستوى الجملة، أما على مستوى النص « فإننا لو استعملنا النتائج النحوية العادية Les résultats ordinaire de la grammaire في تطبيق طريقة تحليل الخطاب في نصوص خاصة textes particuliers أو إذا أقحمنا دراسة التوزيعات في اللسانيات البنيوية الخاصة بالمورفيمات الفردية morphème individuels يجب أن نتحصل على معلومات حول فئة المورفيمات classe de morphème (مثل تحويل كل فعل إلى فعل V en V)، لكن ليس بهذه الدقة لبقية المورفيمات الأخرى، وليس لدينا معلومات محدّدة في الوقت الراهن، لكن يمكن أن توجد...»[22] . معنى هذا أن التحليل يرتكز على تحويلات من فئات معينة مثلا فئة الأفعال، فمن الناحية النحوية يمكن القيام بتحويلات متعددة على الأفعال على النحو التالي:

تحويل المبني للمعلوم إلى المبني للمجهول

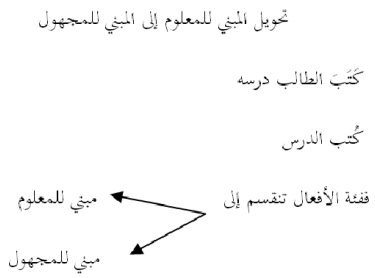

وكل فعل من هذه الف

كما يقترح هاريس نموذجا تصنيفيا لمكونات الخطاب، والبحث عن مواقعها . « يقوم الباحث تجريبيا بالبحث كيف توجد دائما الوحدات بجانب الأخرى، أو في نفس المحيط »[23]. والمقصود هنا الوحدات النحوية، وبشكل عام البنية النحوية التي يرتكز عليها التحليل التوزيعي . «وهذه الطريقة تقترب من تلك الطريقة التي نستعملها لتقعيد نحو اللغة (الذي يقيم

العلاقات التوزيعية بين الوحدات)، أكثر من قربها من طريقة وضع قاموس(الذي يضع قائمة لكل وحدات هذه اللغة بغض النظر عن موقعها) »[24] ، حيث ينظر هاريس إلى هذه الطريقة على أنها شكلية بحتة .

4. تحليل الخطاب عند هاريس:

تعتبر ثنائية اللغة والخطاب من أهم العناصر التي أسست للنحو النصي، على اعتبار أن بنية اللغة من بنية الخطاب والعكس، كما أن :«الخطاب واللغة تطبيق في الميدان، اللغة هي التي تنفذها الأنا المتكلمة، وهي مرادفة للكلام»[25]. من خلال هذا القول نلاحظ أن مصطلح الخطاب مرادف لمصلح اللغة، على اعتبار أن كل واحد منهما يفترض وجود متكلم. أما ما يتعلق بالعلاقة بين اللغة والكلام فهناك من يرى أن اللغة هي مرادفة للكلام، لكن دي سوسير وضع الحدود الفاصلة بين اللغة والكلام وقال :أن الكلام هو الانجاز الفعلي للغة .

فتحليل الخطاب عند هاريس يستمد مقوّماته من المدرسة التوزيعية، كما أن :« التحليل التوزيعي هو تحليل للخطاب على اعتباره كلا متميّزا un tout Spécifique بدون أن نلجأ إلى دراسته أو إلى أية معرفة سابقة، مثل حدود المورفيمات، وهذا ممكن لأن التوزيعية هي طريقة أساسية في التحليل »[26] . فتحليل الخطاب عند هاريس مقترن بالمنهج التوزيعي الذي يهدف إلى الكشف عن كيفية توزيع الوحدات داخل الخطاب. « لكي نبيّن نجاعة هذه الطريقة أو إمكانية تطبيقها على مدونات غير لسانية matériaux –non-linguistique، يستحسن أن لا نلجأ إلى أحكام مسبقة إلا في حدود الوحدات»[27] . وإن كان هاريس يركز في منهجه على الجانب الشكلي في التحليل ، فإنه، في مقابل ذلك، يطرح إمكانية التعامل مع الأطر غير اللغوية، وهذا يعود إلى خصوصية الخطاب الذي يرتكز على مجموعة من المرجعيات والآليات التي تحيل إلى خارج الخطاب. وفي هذا المجال يرى هاريس أن التحليل يجب أن يتسم بالموضوعية وينطلق من النص.

وبالإضافة إلى هذا يحدد هاريس الاتجاه العام للتحليل التوزيعي بقوله: « وهنا نهتم ليس فقط بالطريقة بل كذلك بالنتائج، إذا أردنا اكتشاف كل ما هو ممكن إيجاده في نص خاصtexte particulier حيث من من المفيد أن نربط ذلك باللسانيات البنيوية، في هذا

يكون الهدف تجنب استعمال قواعد نحو اللغة grammaire de la langue التي هي موضوع الدراسة والقواعد الأساسية لكل الجمل التي لها شكل محدّد»[28] .

والجديد الذي طرحه هاريس في هذه الفكرة هو نحو اللغة. فإذا كان التواصل يتم بمتتالية من الجمل ، في هذا الحال يصح الحديث عن نحو اللغة. ولذلك لا يمكن فهم تحليل الخطاب عند هاريس إلا من خلال مجموعة من الاتجاهات اللسانية التي تمثل امتدادا للتوزيعية أو تخالفها.

ومن هذا المنطلق يعرف هاريس تحليل الخطاب بأنه « طريقة لتحليل متتالية من الملفوظات (منطوقة أو مكتوبة والتي نسميها خطاب discours) ، وهي طريقة شكلية لا ترتكز على المورفيمات كوحدات منعزلة بل كمجموعة من العلاقات داخل الخطاب . ومن الناحية اللسانية يمكن أن يوجد لكل مورفيم معنى خاص، وهذا المعنى قد يكون له حضور في الخطاب» [29] . فتحليل الخطاب عند هاريس يتوقف عند حدود التوزيع، كما أن الخطاب يشمل الملفوظ (سلسلة من الملفوظات) تتخذ شكلين هما: ملفوظ منطوق وملفوظ مكتوب . وفي كلتا الحالتين يتم التحليل على مستوى المورفيمات وهي الوحدات الأساسية المكوّنة للخطاب حيث يتم التركيز بشكل خاص على العلاقات التي تربط بعضها ببعض.

كما يؤكد هاريس على إمكانية أن يكون لكل مورفيم معنىً مستقلا(خارج الخطاب) ومعنى داخل الخطاب . ويعطى هاريس أهمية كبيرة لتحليل الخطاب مقارنة بالمدارس اللسانية الأخرى حيث يقول :« على الرغم من استغلالنا لبعض القوانين الشكلية formelles التي تقترب من اللسانيات الوصفية، فإننا نحقق في النص المدروس على نتائج لا تستطيع هذه الأخيرة (يعني اللسانيات الوصفية) تحقيقه »[30]. والمقصود هنا بالمعطيات الشكلية هي المكوّنات اللغوية البحتة مثل الأسماء والأفعال والروابط اللفظية الخ...والتحليل البنيوي بشكل عام هو تحليل لبنية النص والعناصر المكوّنة له بغرض الكشف عن سماته الشكلية بصرف النظر عن السياقات المحيطة به. كما أن النصوص تختلف في طريقة اشتغالها وأن:«تتابع الوحدات داخل النص لم توضع إلا لاشتغال هذا النص بصفة خاصة، بالمعنى اشتغال وحدات النص للنص نفسه وليس للاشتغال الموجود داخل النص، أي داخل اللغة»[31] . وفي هذا يركز هاريس دائما على أهمية الروابط الشكلية والمنطقية التي تؤدي دورا هاما في تحقيق بنية النص. ويوضح هذه الفكرة بشكل آخر في قوله : «تحليل الخطاب هو البحث عن التتابعات داخل النص، التتابعات الخاصة بالمورفمات كما

هي موجودة في النص، فماذا يحدث (داخل النص) ؟ ألا يمكننا أن نعرف ماذا يقول النص بالتحديد ؟ وهل يمكن أن نعرف كيف يقوله ؟»[32] وهنا تتضح فكرة إبعاد المعنى عند هاريس،لأن المعنى لا يمكن تحديده تحديدا دقيقا، لكن في المقابل يمكن تحديد العناصر المكوّنة للخطاب أو اللغة تحديدا دقيقا.

كما يرى هاريس أن :«اللسانيات البنيوية تتوقف عند حدود الجملة، ليس انطلاقا من مسلمة وإنما طبيعة الدراسة التي كان التركيز فيها على الملفوظ، التقنيات اللسانية تسمح بدراسة كل ملفوظ مهما كان طوله، لكن في كل اللغات يوجد نوع من الملفوظات يكون قصيرا وهو ما نسميه الجملة».[33]

فهنا إشارة إلى دراسة الجملة في اللسانيات، حيث لا يمكن أن ننكر أهمية هذه الدراسات التي كانت المنطلق في لسانيات النص، كما وضّح هاريس أوجه التقارب بين نحو النص ونحو من منظور استعمال المجالين للتقنيات اللسانية والتي تتحدّد عنده في الروابط الشكلية التي تحقق الاتساق بين الملفوظات مهما كان طولها. ومن جهة أخرى أشار هاريس إلى خاصية من خصائص الجملة وهي القصر (الجملة عبارة عن ملفوظ قصير) هذا التعريف قد ينطبق على الجملة داخل الخطاب انطلاقا من كون التوزيع يكون داخله، ، لكن خارج الخطاب يختلف تعريف الجملة من مدرسة لسانية إلى أخرى. كما يضيف هاريس : «النحو يعرض بنية الجملة، والمتكلم يبني جملا خاصة لكن طبقا للبنية وينتج مقاطعا خاصة بالجملة»[34]. و تقترب هذه الفكرة كثيرا من فكرة تشومسكي في كلامه عن الجانب الإبداعي في اللغة. نلاحظ أيضا توافق الاتجاهات البنيوية في طريقة التحليل، وأن تحليل الخطاب عند هاريس هو امتداد لدراسة بنية اللغة —حسب سوسير– كما أن: «اللسانيات البنيوية لا تقحم السياق الخارجي والاجتماعي ولكنها تشير إلى استبدال ملفوظ بآخر أثناء الكلام»[35] .

وفكرة الاستبدال طرحها سوسير في العلاقات الترابطية على مستويين: مستوى الوحدات الدالة (les monémes) ومستوى الوحدات غير الدالة (les phonémes). كما تعتبر فكرة الاستبدال أهم خاصية في اللغات البشرية. وعلى هذا الأساس فإن « التحليل التوزيعي والترابطي(combinatoire) داخل الخطاب تحليلا من نوع خاص، ينطلق من إشكاليتين هما:1– يجعلنا نتجاوز حدود الجملة في إطار اللسانيات البنيوية، بحيث لا يمكن تحديد توزيع

الجمل (أو بوجه عام أية علاقة بين الجمل)، حيث نستطيع أن نتحصل على نتائج محدّدة حول بعض العلاقات التي تتجاوز حدود الجملة، إذا لم نأخذ بعين الاعتبار جمل خطاب مهيكلdiscours suivi، بمعنى تلك الجمل الملفوظة أو المكتوبة من طرف شخص أو عدد من الأشخاص (personnes) والموجودة الواحدة تلو الأخرى على حالة واحدة ...»[36] . فمن الصعب تحديد حدود الجملة داخل الخطاب، فالعلاقات الشكلية داخل الخطاب تتجاوز حدود الجملة، لكن هناك اعتبارات أخرى لهذا التجاوز وأهمها معيار المعنى لذي استثناه هاريس من دراسته. 2 ـ أما الإشكالية الثانية فتتمثل في أن: « العلاقة بين السلوك (الوضعية الاجتماعية واللغة) كانت تعتبر دائما خارج لسانية extra- linguistique»[37] وهذه الفكرة أشار إليها دي سوسير في قوله :«إن تحديد اللغة يجعلنا نقصي كل ما هو خارج البنية، خارج النظام، وهذا ما يحدّد اللسانيات الخارجية linguistique externe»[38] . وهذه الفكرة تبنتها تقريبا كل المدارس البنيوية التي درست اللغة بصرف النظر عن كل اعتبارات خارجية، لكن الدراسات التي تندرج في إطار تحليل الخطاب أعادت الاعتبار للعناصر الخارجية ومن بين هذه الدراسات نجد التحليل التداولي للخطاب الذي أعطى أهمية كبيرة لدور السياق في التحليل .

5.تطور تحليل الخطاب بعد هاريس

لقد فتحت دراسة هاريس حول الخطاب في سنة 1952 الباب أمام الباحثين ليس فقط في اللسانيات بل في حقول معرفية أخرى مثل علم الاجتماع اللغوي وتحليل المحادثة وتيار الاثنوميتودولوجيا Ethnométhodologie [39] ولسانيات النص. فمساهمة هاريس قدّمت الحلول لمشكلة الدلالة في اللغة بوضع استعمالها في الإطار التجريبي، أي بالرجوع إلى سياق استعمالها في الواقع. وقد فتح هذا التوجه، وربما عن غير قصد، المجال واسعا أما التيارات الأخرى التي كانت معنية بتأويل النصوص والكلام والمدونات التواصلية الأخرى فأخذت تربط بين التواصل والسياق الاجتماعي والكشف عن القوانين التي يخضع لها هذا التواصل، وهي قوانين ليست لغوية فحسب، بل في معظمها قوانين اجتماعية أو ما أصبح يُصطلح عليه بأعراف وطقوس التفاعل الاجتماعي كما نظّر إلى ذلك غوفمان E.Goffman الذي أعطى أهمية قصوى للمناسبة الاجتماعية ودورها في توجيه الخطاب.[40]

كانت هذه التطورات منصبة في البداية على أسس تحليل الخطاب التي أرسى قواعدها هاريس في هذه الدراسة كما نجد ذلك واضحا في أعمال براون ويول Brown and Yule وفوكوFoucault. يعتبر براون ويول أن الخطاب هو دراسة اللغة في الاستعمال[41] وأن موضوع تحليل الخطاب هو ما استخدمت فيه اللغة[42]. أما فوكو فيعتبر الخطاب «مجموع الملفوظات التي تندرج في إطار نفس التشكيلة الخطابية »[43]. ويعتبر فوكو مؤسسا لمفهوم التشكيلة الخطابية Formation discursive التي هي « مجموع الملفوظات التي تخضع لنفس النظام من القواعد »[44].

لكن هناك محاولة مختلفة لتأطير تحليل الخطاب قام بها الباحث الفرنسي دومينيك مانغونو D.Maingueneau ، معتمدا على أعمال بعض اللسانيين وعلماء الاجتماع الفرنسيين ، تتمثل في صياغة مشروع سماه المدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب حيث وضع في مقابلها المدرسة الأنغلوسكسونية التي حصرها في تيار تحليل المحادثة الذي تطور في بداية ستينيات القرن الماضي. ويعتبر مانغونو المدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب محصلة ظروف نوعية خاصة بالثقافة الفرنسية والتقاليد العلمية التي تتخذ أحيانا طابعا أوروبيا[45]. وتتمحور هذه المدرسة، في رأي مانغونو، حول ثلاثة أقطاب هي :

. لسايات دي سوسير.

. الدراسات التاريخية.

. علم النفس[46].

ويقوم تعريف مانغونو لتحليل الخطاب على اعتباره «منفصلا عن الحقول المعرفية الأخرى التي تدرس الخطاب (مثل علم الاجتماع وعلم النفس وغير ذلك) . فهو ، بدلا من أن يقوم على تحليل لغوي اجتماعي أو نفسي لخطاب فإنه يحاول أن يؤطر اشتغاله في سياق اجتماعي محدد ، كاشفا عن مكوناته المختلفة مثل أجناس الخطاب وموضوعاته [47]». فوجهة نظر مانغونو، بهذا الشكل، لا تختلف عن وجهة نظر الباحثين الفرنسيين الآخرين أمثال أوزوالد ديكرو O.Ducrot الذي ركز على مفهوم قوانين الخطاب lois du discours الذي يعتبر عصب عملية التخاطب. « فبالنسبة إلى ديكرو فإنه على المتكلم ليس فقط التعبير عما يتوقعه المتلقي لكسب تعاطفه بشكل مباشر، بل يتعلق الأمر بالخصوص بالتحكم في ضمنيات الخطاب

sous-entendus والافتراضات المسبقة présupposés حتى لا تحدث خيبة في تأويل المتلقي »[48].

ومن جهة أخرى تعتبر كاترين كاربرا أوريكيوني C.Kerbrat-Orecchioni أن تحليل الخطاب يدرس ما تسميه الكفاءة البلاغية التداولية compétence rhétorico-pragmatique ، وهي مجموع المعارف والأدوات التي يملكها المتكلم والتي تخص مبادئ استعمال الخطاب حيث تقابلها قواعد ذات طبيعة تركيبية دلالية syntactico-sémantique »[49] . فالواقع أن كاربرا أوريكيوني فضلت استعمال مفهوم مبادئ الخطاب، وهو المصطلح المحوري لنظرية الباحث الأمريكي بول غرايس P.Grice كما تشير إلى ذلك أوريكيوني في نفس الموضع[50].

وللتأكيد على وجهة نظره حول استقلالية تحليل الخطاب عن الحقول المعرفية الأخرى التي تستهدف الخطاب بالدراسة يسوق مانغونو مثالا على مدونة خطابية وهي زيارة الطبيب. « فحقل تحليل المحادثة يركز هنا على قواعد التخاطب، وتركز اللسانيات الاجتماعية على التنوع اللغوي، بينما تركز البلاغة على أساليب الإقناع. في حين يضم تحليل الخطاب هذه الجوانب مجتمعة [51] .

6.خلاصة

وكخلاصة لهذا البحث يمكن اعتبار مجهودات هاريس في التأسيس لمفهوم الخطاب ووضع الآليات الإجرائية لتحليله بمثابة البداية الحقيقية لحقل تحليل الخطاب. لقد كانت منطلقات هاريس لسانية بالدرجة الأولى لكن مؤازرة اللسانيات الاجتماعية التي كانت متطورة في الولايات المتحدة في ذلك الوقت واستفادته من اللسانيات البنيوية جعلته يتنبه إلى دور العوامل غير اللغوية في التواصل بين الأفراد.

هوامش :

[1] Jean Dubois, Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, Larousse, Paris 1999.p.64.
[2] Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale, édition Payot, Paris 1966.p.370.

[3] Oswald Ducrot et Jean-Marie Schaeffer Nouveau Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Seuil, Paris 1995. p.159.
[4] Ibid, p.159.
[5] صدرت أعمال ساكس بين سنة 1962 و 1972 ، وصدرت أعمال فينكل بين سنة 1967 و 1970.

ينظر :

Oswald Ducrot et Jean-Marie Schaeffer; Nouveau Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, op.cit.,p.159-160.
[6] John Gumperz, Discourse strategies, Cambridge University Press, UK 1982.p.59.
[7] Paul Baker and Sibonile Ellege, Key terms in discourse analysis, Continuum International Publishing Group, London 2011. p.24.
[8] توين فان ديك، النص والسياق، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب 2000.ص17.
[9] نفسه، الصفحة نفسها.
[10] نفسه، ص317.
[11] Jean Dubois, dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, op.cit.,p.156.
[12] Ibid, p.156.
[13] Ibid, p.156.
[14] Ibid, p.157.
[15] Ibid, p.157.
[16] p.80. Ibid,
[17] Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générale ,p.180.
[18] Jean Dubois, dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, p.81.
[19] Op.cit., p.50.
[20] Harris Zellig S , Analyse du discours, Traduit par Dubois -Charlier Françoise , *In* Langage, N 13, Paris 1969. p .12.
[21] p.12. Ibid,
[22] Ibid. p.14.
[23] p.14. Ibid,
[24] Ibid,p.14.
[25] Op.cit.,p.150.
[26] Harris Zellig S , Analyse du discours, op.cit.p.11.
[27] Op.cit.,p.12.
[28] Ibid,p.12.
[29] Ibid.p.8.
[30] Ibid. p.8.
[31] Ibid.p.8.
[32] Ibid. p .8-9.
[33] Ibid. p.9.

[34] Ibid. p .9.
[35] Harris Zellig S , Analyse du discours, op.cit., p10.
[36] Ibid. p .10-11.
[37] Ibid. p .9.
[38]41. Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générale, op.cit. p.
[39] الاثنوميتودولوجيا : تيار في الدراسات الاجتماعية ظهر في سنة 1959 في الولايات المتحدة الأمريكية على يد الباحث غارفنكل ومن بعده ساكس حيث أرسى هذا التيار الآليات الإجرائية لتحليل المحادثة. ينظر :
Patrick Charaudeau et Dominique Maingueneau, Dictionnaire d'analyse du discours, Seuil, Paris 2002.p.236.
[40]: ينظر
Erving Goffman, Interraction rituals : essays In face-to-face behavior, Transaction Publishers, USA 2005. p.2.
Gillian Brown and George Yule, Discourse analysism Cambridge University Press, USA 1983.p.1.[41]
[42] Ibid,p.1.
[43] Dominique Maingueneau, Les termes clés de l'analyyse du discours, op.cit.,p.29.
[44] Ibid, p.41.
[45] Dominique Maingueneau, Nouvelles tendances en analyse du dscours, Hachette, Paris 1987.p.5.
[46] Ibid,p.5-6.
[47] Dominique Maingueneau, Les termes clés de l'analyse du discours, Seuil, Paris 1996.p.11.
[48] Oswald Ducrot et Jean-Marie Schaeffer; Nouveau Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, op.cit. p.570.
[49] Catherine Kerbrat-Orecchioni, L'implicite, Armand Colin, Paris 1986.p.194.
[50] Ibid,p.194.
[51] Maingueneau, Les termes clés de l'analyse du discours, op.cit., p.11.